A. H. Hourani : Syria and Lebanon. A Political Essay. London, 1946.

يعطى الأستاذ حورانى فى الجزء الأول من كتابه لمحة تاريخية عامة . فيذكر أن سوريا بالمعنى الجغرافى قد تأثر تاريخها كل التأثر بجغرافيتها وبحكم موقعها المتوسط كسبت ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها، كما تعرضت لهجرات شعوب كثيرة ، وتتابع عليها الغـزاة الأجانب ، ومزجت بين عناصر الحضارات التى تأدت اليها ، وساهمت بنصيب عظيم فى سير الحضـارة منذ عهد الفينيقيين حتى الوقت الحاضر . وحـدثت تغييرات هامة فى أثناء القرن التاسع عشر لزيادة اهتمام أوروبا بسوريا ولبنان ولحكم محمد على . وتجاذبت البلاد حركة الاقتباس عن الغـرب وحركة الاصلاح العثمانى ونمو الروح الاستقلالية .

قبيل الحرب العالمية الأولى تفاوتت نظرة أهل سوريا بين الرغبة فى الحكم الذاتى والاستقلال التام . واتجـه السوريون الى انجلترا وتطلع اللبنانيون الى فرنسا لنيل المعونة والتأييد فى تحقيق أهدافهم . وعضدت انجلترا اتجاه العرب واليهود اليها فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فى حدود المصالح الانجليزية الفرنسية . وعقدت اتفاقية سايكس بيكو السرية فى ١٩١٧ ، التى قسمت البلاد الى مناطق نفوذ بين انجلترا وفرنسا والعرب . وشجعت انجلترا العرب على الثورة على الدولة العثمانية ، كما أصدرت وعد بلفور لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

لكن الحلفاء لم يحققوا آمال العرب بعد الحرب . وأنشأ مؤتمر فرساى نظام الانتداب . وأعطيت سوريا ولبنان لفرنسا وفلسطين لانجلترا . وحاول العرب المقاومة وأعلن فيصل ملكا على سوريا فى دمشق . ولكن القوات الفرنسية سارعت الى هزيمة قواته فى ميسلون فى ١٩٢٠ ، فهرب

فيصل الى العراق . ومضى الحلفاء فى سياسة تقسيم البلاد . وأدرك العرب أن الحلفاء قد خدعوهم وأن مصيرهم فى أيديهم . كما استاء اليهود لتحديد هجرتهم ومنعها عن بعض المناطق .

يبحث الجزء الثانى طائفة من المسائل . يبدأ بمسألة الاقتباس عن الغرب . فيقول ان أهل سوريا كانوا منذ قرون أحد حملة لواء الحضارة الاسلامية ، ثم أخذوا يواجهون الحضارة الغربية منذ أكثر من قرن . وظهرت هذه الحضارة كقوة ثورية تهدد باحداث تغيير حاسم فى حياة البشر . وقد تفاوت موقف العرب ازاءها ، فعارضها فريق وبالغ فى الايمان بها فريق آخر . على أن الأغلبية المعتدلة اعتبرت أن الحياة العربية يجب أن تتغير على أساس الحضارة الغربية ، مع الاحتفاظ بما هو خير فى تقاليدهم وتراثهم . ويرى الأستاذ حورانى أن خير الوسائل لتحديد الفكر العربى هى دراسة آثار اليونان خصوصا وأن العرب سبق أن درسوها ، ولأنها أساس الحضارة الغربية الحديثة ، ويمكن أن تعد أساسا للتفاهم العقلى بين الشرق والغرب. كما أن على العرب أن يدرسوا خلاصة الفكر الأوروبى الحديث بما تحويه من فلسفة وفن وموسيقى . ويرى أن على سوريا أن تلعب دورا رئيسيا فى هذا المقام بحكم اتصالها الوثيق بحضارة الغرب والشرق .

ويلاحظ أن التقدم الاجتماعى بطىء ، وأن أغلب السكان يعيشون على الزراعة ، وأنه يسود نظام الملكيات الكبيرة فى سوريا ، ويوجد نظام الملكية الجماعية فى لبنان . وهناك عدد كبير من البدو أخذ بعضه فى الاستقرار . وحدث تقدم جزئى فى ميدان الصناعة والتجارة وفى مظاهر الحياة الحديثة فى المدن . وبدأت المرأة تشترك فى الأعمال العامة وأخذ التعليم فى الانتشار . ولا يزال مجال التقدم واسعا فى هذه النواحى .

ويذكر أن حركة القومية العربية ظهرت على أساس من روابط اللغة والدين والتقاليد والتطلع لتحقيق أهداف واحدة . وبدأت موجهة

للتخلص من الحكم العثمانى ، وقويت بالاتصال بالغرب ، خصوصا للاستخفاف والتغرير الذى عامل به الغربيون الشعوب العربية . رغب العرب أن يبعثوا الى الحياة من جديد ، باستقلالهم جميعا وبايجاد رابطة تجمع بينهم وبالعمل على اعادة تنظيم حياتهم . وساعد على نمو القومية العربية ظهور الحركة الصهيونية . قام كفاح عنيف بين العرب واليهود فى فلسطين . ورأى اليهود فى العرب الاضطهاد الذى لاقوه فى الغرب ، ورأى العرب فى اليهود أداة للاستعمار الأوروبى . وحاولت انجلترا أن تحل هذه المشكلة بارسال اللجان وبعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى ١٩٣٩ ، ولكن بغير جدوى .

وفيما يتعلق بمشكلة الأقليات يقول ان أغلب أهل سوريا ولبنان عرب من حيث اللغة والتقاليد ومسلمون سنيون من حيث الدين . ومع ذلك توجد أقليات دينية ولغوية وجنسية مثل الشيعة والدروز والعلويين والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والسريان والأرمن والبروتستات والجراكسة والأكراد والنزكان واليهود . وقويت مشكلة الأقليات لبعض عوامل مثل الخلافات التقليدية ، وتفاوت هذه العناصر فى تأثرها بحضارة الغرب ، وحركة القومية العربية التى أوجدت عدم الثقة بين الأغلبية والأقليات .

ليس فى لبنان أغلبية مطلقة . وكانت أغلبيته فى العهد العثمانى من الموارنة . وتمتع الجبل منذ قرون بالحكم الذاتى ، ووجد تنافس بين زعمائه على السلطة . وكانت صلة الموارنة قوية بفرنسا . وتفاوتت وجهة نظرهم ، كباقى الأقليات فى سوريا ولبنان ، بين استقلال لبنان التام واعتباره قطرا عربيا وتمتعه بالحكم الذاتى . وضمت اليه فى عهد الانتداب الفرنسى مناطق أغلبيتها من المسلمين .

وتوجد فى سوريا أقليات متجمعة . فهناك الدروز فى جبل الدروز

والعلويون فى اللاذقية والأقليات الكثيرة من الأمن والسريان والأشوريين والأكراد الذين هاجروا الى الجزيرة بعد الحرب العالمية الأولى ، مما سبب اضطراب أحوالها . هذا فضلا عن بعض الأقليات المتناثرة فى أنحاء سوريا .

ثم يدرس مصالح الدول الأجنبية . فيقول ان مصالح فرنسا فى سوريا ولبنان تفوق مصالح سائر الدول . وترجع صلات فرنسا بالشرف الأدنى الى عهد الصليبيين والى عهد فرنسوا الأولى . وظلت هذه الصلات تتقدم ، مع استثناءات قليلة ، حتى الوقت الحاضر . وتلخص مصالح فرنسا فى حماية الموارنة وغيرهم من الأقليات ، وحماية البعثات الفرنسية ، والاحتفاظ بمركز فرنسا الثقافى ، وضمان سيطرتها على بعض المواضع الحربية ، والتوفيق بين سياستها فى سوريا ولبنان وفى شمالى أفريقيا ، والتوفيق بين سياستها والسياسة الانجليزية فى الشرق الأدنى ، مع مراعاة مصالحها الاقتصادية .

أما انجلترا فتهتم بسوريا ولبنان من حيث مركزها فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ويهمها أن تبقى فى أيدى دولة صديقة اذا لم تصبح فى يديها هى . وعنيت الولايات المتحدة الأمريكية بتقوية مركزها فيهما بايجاد بعض الهيئات الدينية والتعليمية والمستشفيات . كما أن هناك جالية سورية لبنانية فى أمريكا لا تزال متصلة بوطنها الأول . ويهم الولايات المتحدة الأمريكية أحوال البلاد السياسية فى هذا النطاق . أما ايطاليا فقد عملت على تقوية نفوذها فى الشرق الأدنى باقامة المعاهد والمنشآت وترويج التجارة لكى تنافس نفوذ فرنسا ، ولكن مطامعها السياسية نفرت منها أغلب أهل البلاد . ولم تكن لألمانيا مصالح مباشرة بسوريا ولبنان الا من استغلال استياء العرب لاضعاف نفوذ فرنسا وانجلترا فى الشرق الأدنى . ولم تظهر روسيا اهتماما خاصا بهذه البلاد

منـذ قطعت الثورة الروسية فى ١٩١٧ صـلاتها التاريخيـة بالكنيسة الأرثوذكسية . واهتمت تركيا بأن تقوم فى سوريا حكومة قوية تمنع حوادث الاضطراب على الحـدود . ونشأت اطماع لتركيا فى سنجق الأسكندرونة انتهت بضمه اليها ، فأثار ذلك مخاوف العرب . ولا تعارض تركيا حركة القومية العربية طالما أنها لا تهددها فى شىء .

ولمصر مصالح فى سوريا ولبنان قامت على أساس من رابطة اللغة والدين والصلات الاقتصادية ، وتقدم الانتاج الصناعى فى مصر الذى يعمل على ايجاد سوق له فى سوريا ولبنان . ويهم مصر أن تكون المواقع الحربية فيهما فى يد دولة صديقة . وكذلك اهتمت العراق بأحوال سوريا ولبنان لأنه يربطهم رباط اللغة والدين ، وكان استقلالهما من أهم أهداف السياسة الخارجية للعراق ، كما أن العراق يهمه أن يكون له مخرج عن طريق سوريا الى البحر الأبيض المتوسط .

يبحث الجزء الثالث من الكتاب طائفة أخرى من المسائل الهامة . يدرس أولا الانتداب الفرنسى ، فيقول ان فرنسا عملت على أن يسود النظام وحكم القانون ، وتقدمت المواصلات ونظمت المالية وزادت الأراضى المنزرعة وشجعت التجارة الخارجية وتقدم التعليم . ومع هذا فلم تقم فرنسا بما كان منتظرا منها فى هذه النواحى ، ولم تنل تأييد أغلب أهل البلاد فى آخر عهد الانتداب . شكى الوطنيين من رشوة الموظفين ، واهانة الفرنسيين للعرب ومعاملتهم كأهل المستعمرات ، واعطاء الشركات الفرنسية حق استثمار أموالهم فى البلاد ، كما استاؤوا لأن فرنسا لم تعمل على انشاء حكومة مستقلة ولم تهتم بتنمية الحياة النيابية ، وشجعت الروح الانفصالية عند الأقليات ، وحرصت على تحقيق مصالحها الخاصة دون مصالح البلاد الحقيقية . وبذلك كله خالفت فرنسا دستور عصبة الأمم ذاته .

ويجمل التاريخ السياسى من ١٩٢٠ الى ١٩٣٦ فى أن عهد الانتداب

الفرنسى فى هذه الفترة كان هادئا نوعا فى قسمين من البلاد . ففى لبنان وضع الدستور الأول فى ١٩٢٥ ثم أوقف العمل به فى ١٩٣٢ لأنه أرهق الميزانية ولأن انقسام لبنان الدينى والمذهبى أوجد حالة من عدم الاستقرار . ورأى المفكرون من الأقليات أن حالة لبنان أصبحت أسوأ مماكانت عليه فى العهد العثمانى . وتباينت الأراء بين استقلال لبنان وانضمامه الى سوريا واحتفاظه بالحكم الذاتى . وكذلك كانت دولة العلويين هادئة نسبيا . وسيطر فيها أهل السنة . وعمل الفرنسيون من ناحيتهم على تقوية الروح الانفصالية . ولم يرض السنيون عن ذلك وطالبوا بضم اللاذقية الى سوريا .

أما سوريا فقد سادتها الاضطرابات . استاء السوريون من سياسة فرنسا ، وساعد على استيائهم ثورة عرب فلسطين ضد اليهود . قامت الثورة أولا فى جبل الدروز بسبب الاجراءات الشديدة التى اتبعتها فرنسا فى تنفيذ بعض الاصلاحات الداخلية ، وللمنافسات الداخلية بين زعماء الجبل . ثار سلطان الأطرش وانضم اليه ثوار دمشق وعلى رأسهم الدكتور شهبندر ، وامتدت الثورة الى عدة أنحاء فى سوريا ووصلت الى جنوبى لبنان . وأمر الجنرال سرايل بضرب دمشق بالقنابل فى ١٩٢٥ ، وسيطر الفرنسيون على الموقف .

كان من نتائج تلك الثورة أن عدلت فرنسا عن التدخل فى تقاليد الدروز ، ووضعوا تحت الحكم الفرنسى ، وعملت فرنسا على تقوية الروح الانفصالية بينهم . واتخذ المندوب السامى دى جوفنيل الوسائل التى تؤدى الى الحكم الذاتى فى سوريا ولبنان واللاذقية . ولكن لم تنجح محاولاته ، وقاومه الوطنيون ، وتألفت الكتلة الوطنية من زعماء سوريا . ووضع دستور فى ١٩٢٨ ، ولكن المندوب السامى اعترض على اعتبار سوريا كلها وحدة سياسية ، واعترض على حق رئيس الجمهورية فى عقد المعاهدات ، وعلى حقه فى اعلان الأحكام العرفية . ثم وضع دستور

آخر فى ١٩٣٠ على أساس الدستور السابق أكدت فيه فرنسا التزاماتها فى سـوريا ، ووضعت قوانين خاصـة لحكم اللاذقية وجبـل الدروز والاسكندرونة ، وألفت وزارة مسؤولة أمام البرلمان . ولكن سيطرت فيه الأقلية من المتطرفين على الأكثرية من المعتدلين . وجرت مفاوضات لعقد معاهدة مع فرنسا . ولكن لم يقبلها الوطنيون المتطرفون ، فسحبها المندوب السامى وعطل الحياة النيابيـة ، وقامت مظاهرات فى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، أدى ذلك الى زيادة روح السخط وظهرت أحزاب وجماعات سياسية جديدة فى سوريا ولبنان .

ويعرض مسألة المعاهدات بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . يقول ان حوادث فلسطين والقاهرة والحرب الايطاليـة الحبشية أدت الى تقوى الشعور الوطنى فى سوريا ولبنان . وجرت مفاوضات للوصول الى حل لقضية البلاد فى ١٩٣٦ . وضع مشروع للمعاهدة الفرنسية السورية ، قضى بالتعاون بين البلدين فى حل المشاكل الخارجيـة ، وأعطى لفرنسا حق استخدام طرق المواصلات والموانى ، وتصبح الحكومة السورية مسئولة عن حماية أراضيها ، وتبقى بعض قوات فرنسية فترة من الزمن فى جبل الدروز واللاذقية ، وتأخذ سوريا مستشاريها من الفرنسيين ، وتصبح الأسبقية فى البروتوكول لسفير فرنسا ، وتبقى علاقة النقد الفرنسى بالنقد السورى قائمة ، كما تحافظ سوريا على الأقليات . واتفق ألا تصـبح المعاهدة نافذة قبل موافقة البرلمانين السورى والفرنسى ، ثم تمضى فترة ثلاث سنوات لتمهيد انتقال الادارة الى السوريين ، ثم تطلب سوريا دخول عصبة الأمم . وكذلك وضع مشروع مشابه للمعاهدة الفرنسية اللبنانية ، خلا من تحديد استخدام القوات الفرنسية ، وتعهدت فيه الحكومة اللبنانية بتنفيذ برنامج اصلاح داخلى .

انتخب مجلس نيابى فى لبنان . ولكن لم تستقر الحياة النيابية هـذه

المرة أيضا لاستمرار المنافسة بين الأحزاب ، ولاختلاف الرأى فى الانضمام الى سوريا والانفصال عنها .

وفى سوريا عادت الحياة النيابية ووافق البرلمان السورى على مشروع المعاهدة ، وأعلن ضم جبل الدروز واللاذقية الى سوريا ، وبدت البلاد أنها أوشكت على الاستقلال الصحيح . ولكن استجدت أمور قلبت الموقف . أولا : طلبت تركيا وضع نظام خاص لسنجق الأسكندرونة لوجود جالية تركية كبيرة به . وتساهلت فرنسا ازاء مطالب تركيا لأنها كانت تحرص على صداقتها أمام خطر قيام حرب مع ايطاليا . وجرت انتخابات فى السنجق اشتركت تركيا فى الاشراف عليها ، وأسفرت عن كسب الترك أغلبية صغيرة فى الحكم . وانتهى الأمر بضم تركيا للأسكندرونة فى يونيو ١٩٣٩ .

وتجددت مشكلة الأقليات. فلم يستقر الحال فى جبل الدروز واللاذقية والجزيرة . وتفاوتت دائما الآراء على الانضمام لسوريا والانفصال عنها. وقامت ثورات انتهت بطرد الحكام السوريين وتدخل فرنسا لاعادة النظام فى تلك المناطق .

وكذلك لم ينج مشروع المعاهدة من نقد ساسة فرنسا . قالوا ان السوريين لا يزالون غير صالحين لحكم أنفسهم ، وان ضمانات المعاهدة للأقليات وللقوات الفرنسية فى سوريا غير كافية . وحاول رئيس الحكومة السورية جميل مردم حمل فرنسا على قبول مشروع المعاهدة بدون جدوى . وبذلك فشلت سياسة ١٩٣٦ ، وحلت الكتلة الوطنية وعطل الدستور فى ١٩٣٩ . وقاد المعارضة الدكتور شهبندر ، وظهر حزب الكتلة الوطنية الحرة الذى أخذ يسعى لتحقيق الأمانى القومية . وحدث أن أصدر المندوب السامى الجديد مسيو بيوه قانونا بتحديد حقوق الهيئات الدينية فى الأحوال الشخصية وعامل المسلمين كأصحاب أى دين آخر . أزاد ذلك استياء السوريين وقويت المعارضة ، واستاءت

الحكومة وأصدرت أمرا بعدم تنفيذ القانون الجديد لأنها السلطة الوحيدة التى لها حق التشريع فى البلاد . سقطت الوزارة وحدثت اضطرابات أخمدتها القوات الفرنسية فى مارس ١٩٣٩ . ثم أعلنت فرنسا بعد فترة قصيرة أنها مستعدة لعقد معاهدة جديدة على أساس مشروع ١٩٣٦ ، مع بعض قيود حربية تقتضيها الحالة الدولية التى كانت تنذر بخطر الحرب . فلم يرض الوطنيون عن ذلك . وعطل الدستور مرة أخرى . وعين مجلس ادارى لحكم البلاد وأعيدت الادارة المنفصلة فى جبل الدروز واللاذقية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية التى هددت سوريا ولبنان بالأخطار . ساور أهلهما الخوف وعدم الثقة بالحلفاء بناء على تجاربهم الماضية . وعندما سقطت فرنسا فى ١٩٤٠ أعلن ممثل الحكومة الفرنسية الجديدة أن حالة الحرب قد انتهت فى الشرق الأدنى . أزعج ذلك الحلفاء لأن معناه وقوف فرنسا مكتوفة الأيدى اذا ما حاولت قوات المحور احتلال سوريا ولبنان . فأعلنت انجلترا أنها لا تسمح بأن تقع البلاد فى يد قوات معادية . وفى أوائل ١٩٤١ وصلت حالة القلق الى نهايتها بسبب نقص مواد التموين فضلا من قوة الشعور الوطنى والرغبة فى التخلص من الحكم الأجنبى . وتألفت فى سوريا ولبنان وزارتان اداريتان . وبعد سيطرة ألمانيا على البلقان أخذ نفوذها يقترب فى سوريا ولبنان . وثورة العراق على انجلترا واتصال المحور بزعمائها اضطر الحلفاء للقيام بعمل حاسم . فعبرت القوات المتحالفة حدود سوريا ولبنان من جميع الجهات فى يونيو ١٩٤١ . وأبدت قوات الجنرال دنتز مندوب حكومة فيشى مقاومة عنيفة فى بعض المواضع . ولكن انتهى الأمر بسقوط البلاد فى أيدى الحلفاء .

ومنذ بدء الحملة السورية صدرت عدة منشورات وتصريحات سياسية . منها أن أعلن الجنرال كاترو انتهاء عهد الانتداب واستقلال

سوريا ولبنان ، مع قيام مفاوضات للاتفاق على التفصيلات . كما ضمنت انجلترا استقلال البلاد . وأعلن الجنرال دى جول أن فرنسا الحرة ستعمل على اجراء مفاوضات لعقد محالفات تقر الاستقلال ، وتضمن التحالف مع فرنسا وتحفظ مصالحها فى الشرق الأدنى على أساس مشروع ١٩٣٦ ، وقال ان فرنسا الحرة ستبقى مع ذلك مسؤولة عن ادارة البلاد وحمايتها فى أثناء الحرب .وأعلنت انجلترا أنها لن تعتدى على مركز فرنسا الممتاز فى سوريا ولبنان ، واعترفت باستقلالها وكذلك الدول الحليفة . واعترفت الحكومة السعودية باستقلال سوريا فقط وكذلك فعلت مصر . أما الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا فأرجأتا الاعتراف بالاستقلال حتى يتم تنفيذه .

وبالرغم من ذلك كله فان السلطات الفرنسية لم تظهر استعدادها لاعادة الحيـاة النيابية . فوجدت حالة من السخط فى سوريا بزعامة شكرى القوتلى . وأزاد الحالة سوءا الصعوبات الاقتصادية ومشكلة التموين والتعطل . وبعد فترة من التردد أعلنت فرنسا الحرة اعادة الحياة النيابية فى البلدين . وانتخب شكرى القوتلى رئيسا لجمهورية سوريا وبشارة الخورى رئيسا لجمهورية لبنان فى ١٩٤٣ .

وفى الجزء الرابع يعطى الأستاذ حورانى خلاصـة عامة لمشكلات البلاد ويقدم بعض المقترحات لحلها . يقول ان حل المشكلات السياسية لسوريا ولبنان يجب أن يطابق حاجة السلم العالمى ، ويجب أن يكون متفقا مع مصلحة الشعوب العربية ، كما يجب أن يحفظ مصالح الدول الغربية . ويذكر أن ضعف البلاد العربية الحربى والاقتصادى يجعل من الضرورى ابقاء بعض القوات المسلحة فى بعض المواضع الحربية فترة من الزمن . ومن الضرورى أن تحقق المساواة للشعوب العربية والا ثارت كراهيتها للغرب . ولكى تحتفظ الدول الغربية بنفوذها فى الشرق الأوسط يجب أن تقدم لشعوبه المعاونة الصادقة للنهوض . كما يجب أن تتفق هذه

الدول فى سياستها ومعاملتها للشعوب العربية والا تعرضت مصالحها جميعا للخطر . ويحسن أن يكون الدفاع عن سوريا ولبنان بمقتضى معاهدة تعقد مع مجموعة الأمم المتحدة بما فيها فرنسا ، على أن يوضح لأهل البلاد أن هناك ما يشبه ذلك بين الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا .

ويشير الى العلاقة بين سوريا ولبنان وأنه يجمع بينهما روابط ومصالح مشتركة . وينصح بضرورة وجود شعور عام بالوطن اللبنانى يعلو على عوامل الخلاف المحلية فى لبنان ، يوازنه شعور رشيد بالقومية العربية . وينصح بضرورة القضاء على توتر العلاقات بين الأكثرية والأقليات فى أنحاء سوريا ، ويقترح أن تعمل الأكثرية على هضم الأقلية واستمالتها بالادارة الرشيدة العاقلة ؛ وبالمشاركة فى حياة المجتمع والقيام بواجبات المواطن الحر .

ويقول انه على الرغم من تقسيم سوريا الجغرافية الى مناطق خضعت لانجلترا وفرنسا فانه يمكن ايجاد نوع من الاتحاد العام ، ومن الضرورى حل المشكلة الصهيونية ، ولا شىء يدفع العرب الى كراهية الغرب مثل هذه المشكلة . ولا يستطيع أن يجد الحل الملائم .

ويذكر أيضا أنه من المحتمل ايجاد وحدة بين سوريا والعراق بعد التغلب على عوامل الخلاف المحلية ، وايثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . ويرى أنه من الصعب ايجاد وحدة عربية عامة لنمو شعور القومية فى مصر ، وللخلاف على الحكم والعرش ، وللخلاف فى المستوى الثقافى والاجتماعى . ومع ذلك يرى أهمية تقوية الروابط بين الشعوب العربية فى الناحية الاقتصادية والثقافية .

ويشير الى علاقة الأقطار العربية بأوروبا . ويكرر النصح بأن تعمل الدول الغربية على معاونة العرب باخلاص فى حل مشاكلهم ، وعلى العرب أن يرحبوا بذلك . ويحسن أن تشترك الروسيا فى هذا ، حتى لا تتعارض

المصالح بين الدول . كما يجب أن يوضح موقف تركيا ازاء العرب حتى تزول المخاوف وتحل الثقة بين الجانبين .

وأخيرا يذكر خاتمة بأهم الحوادث من أكتوبر ١٩٤٣ الى ابريل ١٩٤٥ . يقول ان اعلان استقلال سوريا ولبنان فى ١٩٤١ لم يعن تنفيذ ذلك الاستقلال . اذ أعلنت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى أنها تحل مكان نظام الانتداب مؤقتا ، وأن تسليم ادارة البلاد الى الوطنيين مشروط بعقد معاهدتين تضمنان استقلال سوريا ولبنان ، وتحفظ مصالح فرنسا . قابل الوطنيون ذلك الاعلان باستياء شديد ، وقالوا انهم لم يعترفوا قط بنظام الانتداب ، ولا يعترفون باللجنة الفرنسية كوريثة للدولة المنتدبة ، وان هذا يعتبر تراجعا عن اعلان استقلال البلاد . قالوا ما قيمة استقلال أى بلد اذا شرط بعقد معاهدة مع دولة أجنبية . وأدرك الوطنيون أن فرنسا اذا ما قويت بعد الحرب فستعمل على استرجاع مركزها فى الشرق الأدنى بالقوة المسلحة .

طالبت الحكومة اللبنانية أولا بنقل السلطات الادارية الى يديها . وعدلت الدستور اللبنانى فألغت الاشارة الى الدولة المنتدبة والى عصبة الأمم ، وأعلنت أن عقد معاهدة مع فرنسا لن يتقيد بتحفظات الانتداب اتخذت فرنسا ازاء ذلك اجراءات شديدة ، فقبض على رئيس الوزارة رياض الصلح وعلى أغلب الزراء . وحل مجلس النواب . أثار ذلك شعور الشعب وحدث اضراب عام ووقعت مصادمات مع الجند الفرنسى . وأظهر اللبنانيون شعورا بالوحدة والتضحية بالمصالح الذاتية . وأعلنت انجلترا أنها سبق وأن ضمنت استقلال البلاد ، وأنه يهمها أن يسود الأمن فى لبنان فى أثناء الحرب لأنه طريق هام للمواصلات . وبعد فترة من الاضطرابات أعيدت الوزارة السابقة وألغيت أغلب القرارت الشديدة . ثم حذت سوريا حذو لبنان ، فعدلت دستورها بما يلغى سلطة الدولة المنتدبة ، وأعلنت أنها لا تقبل أية معاهدة كشرط

للاستقلال . كما أعلنت الحكومتان السورية واللبنانيـة أنهما متفقتان على ادارة المصالح المشتركة بينهما .

وفى خلال ١٩٤٤ أعلن ضم جبل الدروز نهائيا الى سوريا ، ولم تضم اللاذقية وقتئذ بسبب استمرار ثورة سليمان المرشد . ثم نقلت أغلب مرافق الادارة الداخلية الى الحكومتين كالجمـارك والمالية والاحتكارات والرقابة على الصحف . وطالبت الحكومتان بتسليم الجند الخاص الوطنى الذى بقى تحت قيادة فرنسا ، لأنه لا احترام لحكومة غير مسلحة ، ولا يليق أن تعتمد دولة مستقلة على قوات دولة أجنبية فى قمع حركات العصيان . فسلمت فرنسا جزءا من تلك القوة الى لبنان فقط .

وأخيرا تحققت فكرة الجامعة العربية . وجرت محادثات بين ممثلى الدول العربية والحكومة المصرية ، وصدر بروتوكول الاسكندرية فى أكتوبر ١٩٤٤ ، الذى أعلن انشاء جامعة الدول العربيـة من العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن والمملكة السعودية واليمن ، للتعـاون فى حل المشكلات التى تنشأ بين أعضاء الجامعة ، والتعاون فى المسـائل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية . وأعلن البروتوكول احترامه لاستقلال لبنان ، وأيد حقوق عرب فلسطين ، وأظهر عطفـه على اليهود . وفى فبراير ١٩٤٥ أمضت الحكومات الست فى القاهرة ميثاق جامعة الدول العربية ، الذى أكد البروتوكول السابق ، وأعلن أن غرضه تقوية الروابط بين أعضاء الجامعة وتنظيم جهودهم السياسية والمحافظة على استقلالهم وبحث مشكلاتهم فى شتى مرافق الحياة . كما أعلن احترام أعضاء الجامعة لشكل الحكومة فى دول الجامعة الأخرى .

وفى آخر الكتاب ملحقان . يحتوى الأول على طائفة من الأوراق الرسمية المتعلقة بتاريخ سوريا ولبنان مثل صك الانتداب فى ١٩٢٢ ، ومشروع معاهدة التحالف فى ١٩٣٦ ، وقوانين خاصة بحكم جبل الدروز واللاذقية والجزيرة ، واتفاق فرنسا وتركيا بشأن الاسكندرونة ، واعلان

كاترو استقلال البلاد وتصريحات دى جول وساسة انجلترا ، واعطاء الادارة للوطنيين . ويقدم الملحق الثانى احصائيات حديثة عن سكان سوريا ولبنان والمذاهب الدينية المختلفة . كما يسرد قائمة بأهم المراجع ويعطى مذكرات تحليلية موجزة .

بعد هذا العرض العام لمحتويات الكتاب ، أقـدم أولا الملاحظتين التاليتين .

١ — أعطى لنا الكتاب عرضا موجزا تناول فيه مختلف المسـائل الحيوية والمشاكل التى تهم سوريا ولبنان خاصة والشرق الأدنى عامة مع الاشارة الى مصالح الدول الغربية . وذلك بأسلوب سهل واضح ممتع . وتمثيل أغلب آرائه الى الاتزان والاعتدال ، مع تقديره للمشاكل المختلفة التى تهم هذه البلاد . وحاول جهده أن يقدر حاجاتها وظروفها الدقيقة فى أثناء حربين عالميتين ، مع تقديم بعض الحلول والآراء لحل مشكلاتها الداخلية والخارجية . ووفق فى ذلك أكبر التوفيق .

٢ — يثير الكتاب فى نفس القارىء حب المعرفة ويشوقه الى المزيد من المعلومات عن نواحيه المختلفة . وهو بذلك يوحى بدراسات أوسع ، اذا ما عرفت كل الأصـول التاريخية فى المستقبل ، تتنـاول مشكلة الاقتباس عن الغرب أو مشكلة الأقليات أو نظام الحكم أو نمو شعور القومية .

ويستحق الكتاب فى هذا كله التقدير والاعجاب .

ولكن ليسمح لى الأستاذ حورانى أن أقدم بعض ملاحظات أخرى لعله يوافقنى على بعضها على الأقل .

١ — لا ينطبق عنوان الكتاب « سوريا ولبنان » على محتـوياته تماما . يوحى العنوان بأنه يتناول تاريخ سوريا ولبنان فى كل عصور التاريخ ، لأنه خلو من تحديد عصر أو تاريخ معين . ويتناول الكتاب

فى الواقع أحوال البلاد فى العصر المتأخر . كان يحسن أن يسمى كتابه « التاريخ المعاصر لسوريا ولبنان » مثلا .

٢ — اعترف الأستاذ حورانى فى أول كتابه بأنه وضعه فى وقت الحرب ، ولذا فلابد أنه يحتوى على بعض أوجه النقص ، لأن هنـاك مسائل مهمة ودقيقة تحتاج الى بحث وتمحيص ، ولا يمكن تناولها الا بشكل عام سريع . فقد تتغير مصالح الدول أو أنواع الحكومات فى الشرق الأدنى . وقد تظهر وثائق تاريخية مجهولة فتكشف عن حقائق هامة . فى الواقع أن هذه احدى الصعوبات التى تواجـه من يتعرض لكتابة التاريخ المعاصر . والمعيشة فى العصر ذاته تجعل الانسان قريبا جدا من الحوادث ، وقد تفوت عليه فهم بعض المسائل ، وقـد تجعله خاضعا لمؤثرات ومصالح خاصة . بعكس من يكتب بعد زمن ، فانه يستفيد من تجمع الحقائق الكثيرة لديه ، ويستطيع أن يدرس المسائل المختلفة فى جو هادىء مستقر ، بعد أن تتبلور أمامه حوادث الزمن . وليس هناك سبيل للتغلب على هذه الصعوبة .

٣ — ص ٢٨ : يعتبر أن حكم محمد على فى سوريا هو بداية لتاريخها الحديث . ويقصد بذلك أن اصلاحات محمد على قد غيرت أحوال البلاد تغييرا حاسما الى درجة أن تعتبر حدا فاصلا بين تاريخها الوسيط وتاريخها الحديث . يحسن فى نظرى أن نصطلح على جعل التاريخ الحديث يبدأ بشكل تقريبى فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر ، وعندما أخذ طريق التجارة العالمية يتحول الى الرجاء الصالح . وقد ترتب على ذلك أحداث جسيمة . اذ اختلت مالية مصر والشام مما أعجز دولة المماليك عن الوقوف أمام الغزاة العثمانيين فى أوائل القـرن السادس عشر ، وتحولت الشام وغيرها من أقطار الشرق الأدنى الى ولايات عثمانية . وهذا التحديد التقريبى هو المصطلح عليه لبداية التاريخ الحـديث فى الغرب . فيحسن أن نتخذ هذا التحديد ذاته . ولا يصح أن نجعـل

تقسيم عصور التاريخ يختلف فى بلد عن غيره . ولا يجوز مثلا أن نقول أن الحبشة لا تزال فى العصور الوسطى من حيث تحديد العصور التاريخية . هى الآن فى العصر الحديث ، وان كانت لا تزال خاضعة لظروف العصور الوسطى فى أغلب مقومات حياتها .

٤ — ص ٧٩ : عند الكلام على أثر سوريا فى تطعيم الفكر الشرقى بأثار الفكر الغربى ، يقول الأستاذ حورانى ان على أهل سوريا أن يقوموا بواجبهم فى هذا السبيل ، ولا يقنعوا بأن يكونوا تابعين ثقافيا لمصر . جميل أن ينهض كل شعب عربى وأن تحفز الهمم للعمل والانتاج . ولكن لا داعى لأن تحذر سوريا من أن تكون تابعة ثقافيا لمصر أو العكس . لماذا يتبع العكس . لماذا لا يتبع بعضنا بعضا ، ولماذا لا نجد ولا نساهم جميعا ونتعاون ونتآزر فى سبيل التقدم ، دون أن نحذر هذا من سبق ذاك ؟ فلتسبقنا سوريا أو فلنسبقها نحن . والخير يعود علينا جميعا ، اذا ما وصلنا حقيقة الى مستهل النضوج الصحيح .

٥ — ص ٨٠ : يرى أن المسيحيين فى الشرق الأدنى أقدر على فهم الروح الأوروبى ، لأنهم لا يشعرون بالتعارض بين روح الغرب والشرق كما يشعر بها المسلم . أظن أن فى هذا الرأى بعض المبالغة . فلا يعنى كون المسيحى مسيحيا فى الشرق تأثره واستجابته لحضارة الغرب أكثر من زميله المسلم فى الشرق. اليابانيون وهم غير مسيحيين أخذوا عن الحضارة الغربية أكثر مما أخذ مسيحيو الشرق ومسلموه على السواء. والمسيحيون فى شرقى أوروبا يخالفون المسيحيين فى غربيها . وبعض الأقباط فى مصر أمعن فى التمسك بالقديم من بعض المسلمين . فى نظرى أن جميع العناصر — اسلامية أو مسيحية — التى اتصلت بحضارة الغرب بطريقة أو أخرى قد تأثرت بالحضارة الأوروبية بدرجات متفاوتة تبعا لاستعداد كل فرد والفارق الدينى لا يكفى وحده للتأثر بالحضارات .

٦ — ص ٢٥٩ : يقول ان حل المشكلات السياسية لسوريا ولبنان يجب أن يطابق حاجة السلم العالمى . ما السلم العالمى ؟ وهل له وجود صحيح ؟ أظن أنه يوجد سلام بريطانى أو ألمانى أو روسى . . . ولكن لا يوجد حتى الآن سلام عالمى حقيقى . هذه مشكلة لم تحل بعد ، وليس من المنتظر أن تحل قريبا . وان سياسة الجشع والأنانية وتعارض المصالح التى تسيطر على العالم لا تجعل أية قيمة للعهود والمواثيق والرغبة فى السلام العالمى . والكلام على السلم العالمى شىء وتحقيقه شىء آخر .

٧ — ص ٢٥٩ : يقول ان ضعف الأقطار العربية حربيا واقتصاديا يجعل من الضرورى ابقاء بعض القوات المسلحة فى بعض المواضع الحربية فى سوريا ولبنان بعض الزمن . لماذا ؟؟ نتيجة للجشع والتنافس مع الدول القوية . اذ تحاول الدولة المسيطرة أن تمنع غيرها من الملوك فى النقط الحربية ، حتى لا تهدد مصالحها القريبة أو البعيدة . هل يكفى أن تكون بلجيكا أو سويسرا ضعيفة نسبيا من الناحية الحربية فتعرض عليها بريطانيا أو ألمانيا احتلال بعض النقط الحربيـة بعض الزمن ؟ ؟ ليست هذه هى المعاونة الصادقة والمساواة التى ينصح بها الأستاذ حورانى الدول الغربية فى معاملة الشعوب العربية . تستطيع الدول الغربية أن تقدم المعونة الصادقة المخلصة لشعوب الشرق الأدنى دون احتلال أية مواقع فى بلادهم .

٨ — ص ٢٦٠ : يرى الأستاذ حورانى ضرورة اتفـاق الدول الأوروبية فى سياستها ازاء الشعوب العربية ، واذا اختلفت الدول فى معاملتها فان هذا يضر الجميع . من الصعب اتفاق الدول فى السياسة دائما . وتعارض المصالح يوجد الخلاف حتما . ولماذا ينصح الأستاذ حورانى الدول الأوروبية بالاتفاق فى سياستها ؟ أرجو ألا تكون هذه النصيحة حرصا على فائدة الدول الأوروبية مع التضحية بمصالح الشعوب العربية . يهمنا أن تتعارض مصالحهم ، طالما أنهم غير صادقين وغير حريصين على

مصالح الشعوب العربية ، فقد نكسب من اختلافهم أكثر من اتفاقهم !

٩ — ص ٢٣٦ : يقول الأستاذ حورانى انه ينبغى أن يوضح لأهل البلاد أن احتلال بعض المواضع الحربية — عند عقد معاهدات دفاعية مع سوريا ولبنان — ليس معناه احتلال البلاد والمساس باستقلالها . وأن هذا له نظير بين دول الغرب . فانجلترا تركت بعض قواعدها البحرية فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية . هذا رأى غريب من جانب الأستاذ حورانى ، الذى أبدى تقديرا وانصافا لمشاكل الشعوب العربية فى أكثر من موضع فى كتابه . وهناك فارق كبير جدا بين العلاقة بين دولتين قويتين مثل انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وبين دولة قوية وأخرى ضعيفة . التفاوت الهائل بين المتحالفين — من نوع فرنسا وسوريا — ان صح أن هذا تحالفا ، يجعل استقلال وحرية الدولة الضعيفة فى خطر . وكثيرا ما تصبح النصوص والمعاهدات عديمة القيمة بين الدول القوية ، فما بالنا بهذه النصوص والمعاهدات بين الدول القوية والدول الضعيفة؟؟ أعتقد أن شعوب الشرق الأدنى مهما بلغت من الضعف الحربى ، التى لم تكن مسؤولة عنه وحدها ، قد أصبحت أكثر فطانة من أن تنخدع بمثل هذه الآراء .

١٠ — ص ٢٧٦ : يقول الأستاذ حورانى انه يجب أن توضح سياسة تركيا نحو العرب ، لكى يزول شعور الشك والخوف الذى أوجدته مشكلة الاسكندرونة . هذا رأى صواب من غير شك . ولكنى أرى ضرورة الاهتمام بهذه المسألة أكثر من مجرد ازالة شعور الشك والخوف . تأثرت علاقة الترك بالعرب بظروف ضعف الدولة العثمانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وخاصة فى عهد نمو شعور القومية العربية وتطلع العرب لنيل الاستقلال . وجد بين الجانبين شعور من العداء وعدم التفاهم . وهذا طبيعى . وقد ساعد الحلفاء على توسيع شقة الخلف بشتى الطرق والوعود . وأصبح شيئا مألوفا أن ينظر كثير من العرب وأهل

الشرق الأدنى عامة الى الحكم العثمانى نظرة سيئة خالصة . ومن غير شك كانت للعثمانيين مساوىء كما كانت لهم حسنات . ومثلا ألم يجرب أهل سوريا ولبنان عهد الانتداب الفرنسى ؟ وألم يتضح لفريق منهم أن عهد العثمانيين كان أفضل من حيث الوحدة والرابطة بين أبناء القطر الواحد ؟ ألم يقسم الانجليز والفرنسيين ، برغم وعودهم الكثيرة للعرب ، دولة الشام العثمانية الى وحدات متعددة بغير مبرر حقيقى ؟ ألم يعملوا على اذكاء الروح الانفصالية لدى الأقليات ؟ ألم يؤخروا استقلال البلاد تحقيقا لمصالحهم الذاتية ؟

فى الواقع أنه من مصلحة الشعوب العربية أن تعمل على تقوية الروابط بين شعوب الشرق الأدنى كافة سواء فى ذلك العرب أو الترك أو الأكراد أو اليونان . ومن هذه الشعوب جميعا فى ظروف تاريخية متشابهة واتحدت فى عصور تاريخية مختلفة ، كان آخرها عهد الدولة العثمانية . ينبغى أن تفهم هذه الشعوب أن اثارة الحقد والضغينة بينها ليس من مصلحة أحد سوى الدول الغربية . ينبغى أن تتعلم شعوب الشرق الأدنى من تجارب الماضى . وينبغى أن نفهم الصلة الجغرافية والتاريخية القائمة بينها ، وتدرك المصالح المشتركة والأخطار التى قد تتعرض لها : وأهداف السياسة الغربية المتفاوتة ازاءها ، ويعمل الجميع على أساس من المساواة والفهم والتعاون الصحيح .

حسن عثمان